حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٥ (عدد يناير – مارس ٢٠١٧)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

الربيع العربيّ (واقعة عمرانية) في ضوء الفكر السياسي الإسلامي

بسام عبد الكريم الهلول *

استاذ السياسة الشرعية المشارك - قسم الفقه واصوله - كلية الشريعة- جامعة مؤتة

المستخلص

تعالج المشاهدة هاته (حدثاً) معاصراً حيال نقص في أقلام الباحثين المعاصرين، وحيال نقص فوات في حقوق العامة (الرعيّة)، وفوات في دور (الدَّولة المحايثة) للاجتماع والعمران العربي الإسلامي وتدبيره في ضوء تنقيبات في:
١- الفقه (الحسبي).
٢- فقه الأحكام السلطانية وآدابها.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

استهلال:

لفضاء المرجع والإطار التكويني (سؤال العمل):

- الفرضية الإشكالية حيال مجتمع يعيش انهياره وانكساره واستجلاءٌ لأسباب الانتكاس وتحليل إوليته، ورفع الحجاب عن كوائنه، وأسباب علل اجتماعه (لتقويم محاولةٍ ما لا تعود الأهمية إلى الأصل الذي جاء منه العمل، بل التقييم يكون تبعاً لوظيفته في المحيط الذي تُرجم أو أُلف فيه، فالأمر هو (أمر وظيفة).

تستضيف المطالعة مصطلحين من حقليّ الفلاحة، والمشاهدة الحقلية، إذ انفتاح العلوم ومنهاجها على بعضها سمة من سمات العصر الذي نعيشه، أو ما يسمَّى بالانزياحات المفهومية، إذ يتقاطعُ الجبر مع الفقه، والمنطق مع الأصول، والهندسة مع الأجناس الأدبية من حيث معالجتها بمعامل التوازي، واللغة مع الفقه مثلما الاستحسان فقهاً ولغة.

فالمحاولة هاته - فيما تزعمه- حيال إشكال اجتماعي سياسي ثقافي يوصف (بالفوات أو النقصان) على حدّ تعبير ابن خلدون في مقدمته، وهو يعالج آفات العُمران بمقاييس نقده التاريخي حسب قواعد السياسة وأحوال الاجتماع، وقياس الغائب بالشّاهد، والحاضر بالماضي، حيث تُحكم أصول العادة.

"يتبيَّن في هذا الكتاب ما يعرِضُ للبشر في اجتماعهم من أحوال العُمران في المُلْكِ والكسبِ والعلوم والصنائع بوجوهٍ برهانية يتّضحُ بها التحقيق في معارف الخاصّة والعامّة، وتندفع بها الأوهام وترفع الشكوك..."[١].

"... ومنها العُمران والتساكن والتنازل في مصرٍ أو حلّة للأنس بالعشير... وأمورٌ تعرض من حيث الاجتماع عروضٌ ذاتية...، وأمّا تقديم المعاش فلأنّ المعاش ضروري"[٢].

والمحاولة هاته ومشاهدتها الحقلية حيال فواتٍ تجلّت صورتهُ بالدولة "الكائن المجرَّد المتعالي، حيث هو الماهيّة والمتّسمة بالخلاص الرسولي (وما أريكم إلا سبيل الرشاد)"[٣]، آفتها فواتُ السلطة التمثيلية المفتوحة تخومها على انقسامه، حيث تنتهلُ شرعيتها منه؛ أي (المحايث الذي يتماهى مع السياسي)، أو (استواء السياسي مع مثاله الاجتماعي الشرعي)[٤].

زادوا هذه المحاولة الغميس من كنوز التراث وحوادث المعاصر، ممَّا صيَّرها في مبحثين اثنين:

المبحث الأول: تنقيبات في الآداب والأحكام السلطانية.

المبحث الثاني: تنقيبات في مصنّفات فقه الحسبة.

إذ ما يجمعهما (العامّة أو الرعية) على تفاضل بينهما، إذ الأول - الاتجاه الفكري أكثر واقعية- ، حيث نجد الرعية أو العامة أكثر وضوحاً من الآداب السلطانية التي جعلت من العامة ذاتاً للسلطة والأمير مع تغييبٍ واضح لها[٥].

أو ما يصطلح عليه في نصوص الفلسفة المغاربية الحداثية (العامَّانية)[٦].

فالقراءة حيال (السَّلب المعذب)[٧]، حيث تجلّت صورته بمفردتين: الأولى طوباوية الفقيه العاكف على أوراقه وقراطيسه ذات الوسم الفيلولوجي، أو (الذرّي) (Atomissime)، والثانية غيابُ الفقيه التدخُّلي المنخرط بهمومُ عصره، حيث تستغرقه نوازله حال دون القبض على الواقع، ممَّا نسمه ابن بعيد.

تحاول القراءة هاته، استحضار الشخص المفهومي للفقيه، ونقل محموله إلى حالة من الترهين أو التحيين، ووضع الناجز في ضميمة الصيرورة؛ كي نخلصه من بُعده المدرسي الأكاديمي، أو حالة (بومة المنيرفا) التي لا تطير إلا إذا أرخى الليل سدوله[٨].

والقراءَة تحاولُ بناء القطيعة مع مناهج هؤلاء، حيث الجمعُ والتلفيق والانتقاء، حيث يغيب المنهج فيما يصدرون عنه.

والمحاولة حيال واقعة عُمرانية، أو ما يسمَّى بالمصطلح الحديث (الربيع العربي، أو الثورات العربية)، إذ فوات العُمران تجلّت أسبابهُ بفوات العدل وخلل في أنماط الكسبِ والضروري والإستراتيجي من عالم (العامّة أو الرعيّة)، السبب الذي نعلّل به انشغالُ مساحة المبحثين الحسبة وما راعته في نصوصها لاستدامة العُمران وازدهاره.

فالقراءة برهانية تقوم على التحقيق في علل الاجتماع وكوائنه وإنزالها على أسبابها[٩].

- أسئلة المشاهدة الحقلية:

كيف يتسنَّى لنا ملكة القبض كي تكون حاضرة (التحيين)؟.

مساحة النصوص المشغولة بهمِّ العامّة بفواتِها كمحايثٍ اجتماعي يستوي معه السياسي (Actualisation)[١٠].

كيف نخلّصُ الفقيه من طوباويته في بُعدها الأكاديمي والمدرسي المعزول عن حالة الشاهد المبلِّغ؟.

كيف نردُمُ المسافة المتوتّرة بين الطوباوية والترهين، حيث يتم استثمار واستصلاح النص الحسبي في أبعاده النظري والتطبيقي، وفي بُعده الثالث الحسبة على العُمران البحث في علل الكوائن وإنزالها على أسبابها؟.

كيف يتسنَّى لهذه المشاهدة أن تنحِتَ لنفسها مكاناً في (فقه المحل) أبعاده الزمكانية، أو قراءة الكل الاجتماعي؟.

- الفضاء المرجع:

تأتي هذه المحاولة حيال ما نشاهدهُ وما تشهده الساحة العربية المعاصرة من حدث لا يشكل في ظاهرهِ السياسي إلا بُعداً من أبعادٍ متداخلة، حيث نعيش حالة تحوُّل ساهمت في تدشين انهياراتٍ جيوسيوسية في قلب العالم العربي تتوَّج بعودة العامة أو الشعب إلى واجهة الأحداث لقاء تحقّق لحظة (الفوات، أو النقصان).

تشهد العامة اليوم تدفقاً وسيلاناً في عوالم الافتراض والميديا أخرجها من عالم القوقعة والانهمام بالذات، وضعها على تخوم جديدة، وحسب مفاهيم مصادرنا عودة الحرافيش والدهماء والهامشيون وهم وقود هذا الحراك أو الربيع العربي، إذ شكلت فارضة بين زمنين: الزمن الثقافي الراكد، والزمن الثقافي المتحرِّك، حضرت معه حالة اجتماعية أو (عودة النوابت)، حيث استخدمت هذه اللفظة في سياق منطوق الفلاسفة والمؤرخين قديماً.

يشهد عالمنا اليوم تحوُّلاتٍ نتج عنها تحطيم المسار الخطي بإحداث قطيعة بين زمنين.

الحالة هاته تستدعي حضور الفقيه المحايث المرتبط بأحوال اجتماعه، حيث يتسنى له (التدبير) (Gestion)، المرتبط بأحوال الإنسان واعتماره، كي يكون ممارسة ذات طابع علمي يقوم على معرفة قواعد السياسة، وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السِّير والأخلاق، والعوائد والنِحَل، والإحاطة بالحاضر مماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتّفق فيها والمختلف[١١]. "نبيِّن في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العُمران في المُلك والكسب والعلوم والصنائع بوجوهٍ برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتندفع بها الأوهام وترفع الشكوك. ونقول لما كان الإنسان متميزاً في سائر الحيوانات بخواصَّ اختصَّ بها فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميّز به عن الحيوانات وشُرِّف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر، إذ لا يُمكن وجودهُ دون ذلك من بين الحيوانات كلها إلا ما يُقالُ عن النحل والجراد وهذه وإن كان لها مثل ذلك فبطريق إلهاميٍّ لا بفكرٍ ورويّةٍ، ومنها السعي في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه لِمَا جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه وهداه إلى التماسه وطلبه. قال تعالى أعطى كلَّ شيءٍ خَلقهُ ثم هدى ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصرٍ أو حلّةٍ للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما نبيَّنه ومن هذا العمران ما يكون بدوياً وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحِلل المنتجعة في القفار وأطراف الرِّمال، ومنه ما يكون حضرياً وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمَدَرِ للاعتصام بها والتحصُّنُ بجدرانها، وله في كل هذه الأحوال أمورٌ تعرضُ من حيث الاجتماع عروضاً ذاتياً له فلا جَرَمَ انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة أبواب"[١٢].

تتقدَّم المحاولة بإماطة اللثام عن مساحة العامّة أو الرعية فيما يأتي من نصوصٍ تشغلُ مساحة المبحثين القادمين رغم ما نجده من ثراءٍ في كتب الفلاسفة المعاصرين وأخصُّ بالذكر المغاربة والمدرسة المصرية[١٣]، يقابله شحٌّ وإقلالٌ في أقلام (الباحثين الإسلاميين المعاصرين)، وأخص بالذكر من له عناء بالدراسات الفقهية.

وستميط اللثام فيما أولته من عنايةٍ مؤلفات الحسبة والمساحة التي شغلتها العامّة، حيث العامّة أساس السلطة ورأس الفتنة، وكذا الآداب السلطانية على تحفُّظٍ من بعض الباحثين على أنها مشوبة بالاتجاهات التاريخية كالفارسية مثلاً، حيث هذه المصادر (الآداب

السلطانية) تقلّلُ من شأن العامّة بل تحتقرها وتنعتها بـ (الأوباش والأوغاد والفسَّاق والزعَّار والعيَّاق والبلاصيّة والحرافيش والرِّعاع)[١٤].

رغم ما يُقال عن هذه الآداب من بُعدها عن الروح الإسلامية، إلا أنها ازدانت مصنَّفاتها في الإشارة إلى الرعية والعامة[١٥].

المبحث الأول
تنقيبات في الآداب والأحكام السلطانية

ويقصد بها حسب اصطلاح الباحثين[١٦] المصنَّفات التي قامت على بيان علاقة السلطان مع الرعية لاستدامة سلطته وتقرير وجوده هدفاً، حيث زخرت بمعطيات الأخلاق والتدبير والتصريف، فالرعية تمثّل وجهه ومادة سلطانه وهي ذاتٌ للخضوع مثلما المُلْكُ العضوض، حيث يصوِّر أبو بكر الطرطوشي في تخصيصه لها حديثاً مُسهباً، فيطرح العلاقة الخاصة والوضعية غير المتكافئة بين السلطان والرعية، كما يحذّر الحاكم من عواقب خصالها، ويذكرُ ما يصلحُ بها[١٧].

ويتحدَّث الماوردي، حيث يصوّر الرعية "طفلاً يتيماً" في حاجة إلى "ولي أمر" يتكفّل به، ويقوم بمصالحه، ويقوّم زلله ويصلح خلله ويحفظ أمواله ويديه سواء السبيل[١٨]. ويصورها أبو بكر الطرطوشي "جسداً" شاحباً لا حياه فيه بدون روح السلطان و"ظلاماً" حالكاً في حاجة إلى "سراج" الملوك لينير له الطريق و"أرضاً" عطشى ترتوي من "ماء" السلطان، و"خشباً"متهرئاً يحتاج إلى "نار" (معتدلة) تقيم أوده[١٩]. ويعتبرها ابن رضوان وابن الخطيب، وغيرهما "وديعة" أو "أمانة" في يد الحاكم السلطاني، عليه أن يرفق بها ويحفظها ويسير فيها سيرة العدل[٢٠]، ويرى فيها ابن طباطبا وأبو حمو الزياني وابن الأزرق وغيرهم كثير كائناً "مريضاً" في حاجة إلى السلطان - الطبيب[٢١].

تبطن هذه الرموز أو التشبيهات المذكورة تصوراً واضحاً لطبيعة العلاقة بين السلطان والرعية ومنزلتها منه، وتبرز تبعيتها له واحتياجها الدائم لعنايته ونور هدايته.

الرعية ⟷	السلطان
يتيم ⟷	ولي أمر
جسد ⟷	روح
أرض ⟷	ماء
مريض ⟷	طبيب
ظلام ⟷	نور
أطراف ⟷	قلب
...إلخ	

يقول صاحب سراج الملوك في تصويره للرعية "ومثال السلطان القاهر لرعيته ورعية بلا سلطان، مثال بيت فيه سراج منير وحوله قيام من الخلق يعالجون صنائعهم. فبينما هم كذلك طفئ السراج فقبضوا أيديهم، وتعطّل جميع ما كانوا فيه، فتحرَّك الحيوان الشرير، وخشخش الهوام الخسيس، فدبَّت العقرب من مكمنها، وفسقت الفأرة من جحرها وخرجت الحيّة من معدنها وجاء اللص بحيلته وهاج البرغوت مع حقارته، فتعطّلت المنافع واستطارت المنصار، كذلك السلطان، إذا كان قاهراً لرعيته كانت المنفعة به عامة وكانت الدماء في أهبها معقونة..." [٢٢]. ولأنَّ جور الرعية أشد من جور السلطان، والفتنة أشد من القتل، فإن الأدب السلطاني لا يكتفي، وهذا ما يجب الانتباه إليه، بتأكيد الفكرة الضمنية المتمثلة في "ضرورة السلطة" بل "يتجاوزها"، ويحث الحاكم السلطاني على الحزم والتشدد والقهر لأن الرعية كما يقول الوزير المغربي "كثيرة وعارضة للفساد"[٢٣].

من خلال ما تقدم في النصوص السلطانية، ومهما تعددت مواضيعها وتنوَّعت هو خطابٌ مبطّنٌ حول الرعية والذي يشغل الكاتب والمتمثل في تقوية السلطان واستقراره.

إذ الرعية أساس السلطة ورأس الفتنة، يبرز حضورها أحياناً عند أبو بكر الطرطوشي والماوردي وابن الأزرق عن سياسة الرعية بحيث تتطابق مع سياسة المُلك(٢٤).

وبقدر ما يؤكد الأدب السلطاني أهمية الرعية في بنية الدولة السلطانية، إلا أن معناها مرتبط غالباً بالتهميش.

وفي خاتمة هذا المبحث، ثمَّ سؤال يلقي المحاولة على بوابةِ السؤال التالي: **ما مساحة وواقعية النص المتعلق بالرعية أو العامة أو الجماهير أو القطاع العام في مؤلفات الحسبة حيث واقعية الفقهاء؟**.

المبحث الثاني
تنقيبات في مصنّفات فقه الحسبة

تتمحور اتجاهاتها أو إقلاعاتها في اتجاهاتها النظرية، والتطبيقية، وإقلاعها الأهم هو انقلاب الحسبة حالة انقلاب المعايير وانخرام العقل الاجتماعي.

ومن خلال استعراضنا لمنصَّفاتها (أحكام السوق)، نجد مسائله فيما يخصُّ السوق من أحوال البضاعة، وفتاوى صدرت من الفقيه تجاه المعاش والضروري والحاجي، مثلما نجده عند ابن عمر الكناني القيرواني(٢٥). وقد جاء الكتاب في مسائل على النحو التالي:

- مسألة في دهن التين بالزيت.
- مسألة في اللبن إذا مُزج بالماء، وفي لبن البقر والمعز يخلطان.
- مسألة في بيع الفواكه قبل أن تطيب.
- مسألة في خلط القمح الجيد بالرديء.
- مسألة في القثاء يوجد مُراً.
- مسألة في البيض الفاسد.
- مسألة في القضاء في أمر الجزارين.
- مسألة في خلط اللحم السمين بالهزيل.
- مسألة في خلط الزيت والسمن الرديين بالجيدين.
- مسألة في بيع التصاوير من الصبيان.
- مسألة في القضاء في الملاهي وآلات اللهو.
- مسألة في الأواني المتخذة للخمر.
- مسألة في القضاء في صاحب الحمام.
- مسألة في بكاء أهل الميت على الميت.
- مسألة في خروج النساء إلى المقابر.
- مسألة في النهي عن الخف والنعل الصرّار (الذي يحدث صوتاً، وكان من التبرج).
- مسألة في النهي عن إهراق الماء أمام الدور والحوانيت، حتى لا تنزلق الدواب.
- مسألة في حفر حفيراً حول أرضه أو داره (الخندق الذي يحيط بالأرض لحمايتها، فتهلك فيها الدواب).
- مسألة في اليهود والنصارى يتشبهون بالمسلمين.

- مسألة في منع ذوي العاهات أو الأمراض المعدية من بيع المائعات وغيرها.

... الخ.

إنَّ الناظر في هذا المدوَّن وفي تاريخ تأليفه، نجد أن سلَّم الحضارة الإسلامية كان صاعداً، حيث الضروري والمعاشي لم يأخذ مساحة كبيرة من النصِّ، حيث كانت الجغرافية المسلمة تستولي على قاعدة الذهب وقاعدة القمح، وثمّة ملاحظة أخرى أن شأن الرعية كان واضحاً من خلال واقعية الفقيه، وفاعليات السوق.

- **كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيزري (ت٥٨٩ه)**، حيث كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي وأهدى إليه كتاباً سمَّاه "المنهج المسلوك في سياسة الملوك"، وقد جاء الكتاب في أربعين باباً من النظر في الأسواق، والطرقات، والمكاييل والأوزان، وأبواب الخبازين والفرانين، والطباخين، والعطارين، والحاكة والخياطين، وباعة الصاغة، وباب نخاسي العبيد والدواب، والحسبة على مؤدّبي الصبيان، والحسبة على أهل الذمة.

- **كتاب الرتبة في الحسبة لابن الرفعة، أحمد بن محمد بن علي الأنصاري (ت٧١٠ه)**، حيث نجد أبوابه لا تختلف عمَّن سبقه، حيث جعله في سبعين باباً، تجمعه فيمن سبق وحدة الموضوع.

- **معالم القربة في أحكام الحسبة لمحمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة (ت٧٢٩ه)**، حيث يتشابه الكتاب مع الشيزري، مع زيادة بعض الأبواب. وكله في شأن العامة.

- **نهاية الرتبة في طلب الحسبة لمحمد بن أحمد بن بسَّام (ت. ق ٩ه)**، وجاء الكتاب في مائة وثمانية عشر باباً، تتقاطع في كثيرٍ منها مع الشيزري، إلا زيادة في ثلاثين باباً.

- **كتاب أرباب الصنائع والحسبة عليهم لابن المبرد الدمشقي (ت٩٠٩ه)**، وجاء الكتاب في مائة وبابين، يتقاطع هذا الكتاب مع غيره من الحسبة على أهل الحِرَف.

يتبيَّن من خلال ممّا سبق، أن العامة (الرعية أو الجمهور) كان لها مساحة مُثلى من الحفاظ على المعاشي والضروري.

أمّا المستوى الآخر من الحسبة، حيث انحطاط العُمران ونقصانه من الضروري والحاجي والتحسيني يجعلنا أن نضع فاصلة أو قطعاً معرفياً مزاج الحسبة زمن الجائحة، ونقصان الجغرافية الإسلامية، وكثرة الظلم السلطاني، والوظيف المخزني.

فإستراتيجية النص الحسبي زمن الجائحة (فوات الجغرافية المسلمة ونقصانها وتحوُّلاتها بعد سقوط الأندلس، ١٤٩٢م)، إذ نجد انحساراً في قاعدة الزراعة والتجارة، وارتحال قاعدة الذهب من العالم الإسلامي.

ومن المفيد لنا أن نقف قليلاً أمام حركة التبادل الدولي التي كانت موجودة في العصور الوسطى، وهي العصور التي سادت فيها أنماط إنتاجية سبقت الرأسمالية في كل أنحاء العالم، وأن نحيط بالخصائص التي اتسمت بها هذه الحركة وبكيفية تسوية المعاملات فيها، وخصوصاً تلك المعاملات التي نشأت بين أوروبا وبلاد الشرق. وهنا نلحظ، أن وقائع التاريخ الاقتصادي تدل على أن الدول الأوروبية في العصور الوسطى....، ثم تميز العالم الإسلامي بوفرةٍ لا بأس بها في الإنتاج الزراعي.....، وتشير أبحاث موريس لومبار[٢٦]، إلى أنه هذه التجارة الضخمة التي انغمس بها العالم الإسلامي كانت تستند إلى ما كان يملكه من كميات هائلة من الذهب، ممّا نتج عنه إشارات في كتب الحسبة المتأخرة للعقباني الحفيد (ت١٤٦٨م) (تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر والمناكر، تحقيق بسام الهلول). حيث أشارت التحفة بفوات الإستراتيجي من مثل: القمح، والظلم السلطاني، واتباعات

الظلمية، وتخلفٌ في مهنة الطب، وكثرة القشور الفلسية، وظهور المسألة اليهودية وما أحدثوه في المجتمع المغاربي من فساد، وما وصل إليه كذلك اليهود من نفوذ وسلطان، حيث كان يتقرّب إليهم السلطان، وغلاء الأكرية والأسعار، وضعف القيمة الشرائية للنقد، وفساد سكة المسلمين ونقدهم، وظهور تلقّي الركبان وبيع البادي على الحاضر.

والمسكوت عنه في هذا النص، هموم الهوية المسلمة وما لحق بها من اليهود والنصارى، حيث لم يتخذ وسم الفتوى وإنما سلوك النازلة، وهذا إقلاع جديد من إقلاعات الحسبة، حيث زمن الجائحة التي فعلت فعلتها في المجتمع الإسلامي آنذاك، بحيث تسعفنا عن تبدُّل أحوال الرعية والعامية آنذاك.

وهذا منهجٌ في مقايسة العُمران من المماثلة إلى المخالفة ثم المباينة، وهي قواعد سلوك الخلدونية (مقدمة ابن خلدون).

العامّة وخلق المفاهيم:

وفي ختام هذا المبحث، ومن خلال تنقيباته، نجد أنَّ معنى (العامة أو الرعية) قد أخذ مساحة كبرى في الراهن، حيث أصبح يُطلق على العامّة (النايضة) حسب الدارجة المغربية، وهم يؤرِّخون للحراك الشعبي، حيث أسقط فلاسفة المغاربة ممّا تعانيه العامّة من فوات العدل، والنقص في العمران من حيث نضوب الضروري والمعاشي والحاجي، الأمر الذي نفسِّر به ظهور مفاهيم ومصطلحات جديدة من مثل (الحرَّاق)؛ الذي أحرق البحر، ظهرت كثافته في الخطاب الفلسفي المغاربي، حيث المحيط الأطلسي والبحر المتوسط كان لهما دلالاتهما في ثورة العامّة "في ضوء الحراك العربي، أي انطلاقاً من الحدث، بدأت العلاقة بين المفهوم والمتفلسف؛ أي المنشغل بالفلسفة كتجربة لحياة فلسفية، تتوطد لتكشف عن كيفية جديدة للتفلسف، تستعيد المفاهيم التي تفكر من خلالها الفلسفة . ينطلق "إدريس كثير" بوصفه معبراً عن هذه التجربة الجديدة من السؤال التالي: في ما ذا يمكن أن تفكر الفلسفة؟.

تبدو وضعية السؤال المطروح واضحة مباشرة، ليس لها من هدف سوى معرفة ما تفكر فيه الفلسفة، غير أنها تتضمن مكراً فلسفياً، مشوباً بمكر البلاغة، للإشارة فالعنوان الرئيسي لكتاب "إدريس كثير" هو "بلاغة الفلسفة"، ذلك لأنَّ صيغة السؤال تحيل إلى الفلسفة باعتبارها هي من تفكر، وبذلك تغدو "شخصية مفهومية" أو أنها المفكر الشخصي الذي لا يكف عن التفكير كما لا يكف أيضاً عن إحياء شخيات مفهومية، وعن منحها الحياة. إذن فالفلسفة من حيث هي من يفكر فإنها هي الشخصية المفهومية الأولى أو الرئيسية التي تتولد عنها كل الشخصيات المفهومية ما دامت تبتكر صيغاً وجودية أو إمكانيات حياة فوق مسطح أو مقام محايثة يطور قدرة الشخصيات المفهومية التي تمتلك عدداً من السمات التي يمكنها أن تنشئ شخصيات أخرى تشكل المفاهيم الممكنة، ثمةثلاث عناصر تقدمها الفلسفة يستجيب كل واحد منها للآخر: مسطح، مقام، المحايثة، الشخصيات المفهومية، والمفاهيم الفلسفية[٢٧].

ولا يتردد "أدريس كثير" في أن يُدخل باقتحامه المشكلات المرتبطة بالمفاهيم وبشخصياتها المفهومية في مغامرة تجربة التفلسف باعتبارها مفتوحة على كل الاحتمالات وبذلكن فالفلسفة بالنسبة إليه، يمكنها أن تفكر في كل شيء، وفي لا شيء. وبذلك أيضاً تنفتح تجربته على عدد "من مشكلات الإنسانية التي لا تظهر قوتها إلا في كونها قادرة على نفي ما هي ليست عليه، وعلى تعديم ما يبدو بديهياً تسطيحياً...، وعلى قول لا للدوكسا وتهميش باذئ الرأي، والحس المشترك... كما هو الأمر فيما يتعلق بالبؤس والجائحة والرداءة..."[٢٨].

وفيما وراء المفاهيم، ووراء حروف المعاني تكمن أبعادٌ فلسفية لتشكل الشخص المفهومي (لحراك العامّة).

وهكذا تغدو اللغة العموميّة موضوع تأمل فلسفي ينقلها من عمومها؛ أي من مقام التداول (الدارج) إلى مفهوميتها فتصير متميّزة بمكونات معنية، ومرتبطة بمشكلات متعددة وبشخصيات مفهومية.

وتغدو لغة العامّة موضوع تأمل فلسفي، ومرتعاً خصباً لتوليد المفاهيم الفلسفية، فالحرَّاق (الحرِّيك) و(النايضة) و(الهبّة) رغم عموميتها إلا أنها متواصلٌ دلالي يدعو إلى التأمُّل والتساؤل.

فالحرِّيك تعني خرق وانتهاك القاعدة تكشف عن مشكلتين: قانونية وأخلاقية، ووجودية إنسانية، فالحرِّيك بالمعنى الاستعاري للمعيار القانوني هو خلل في سلوك الاجتماع العام داخل المدينة حيث الرعية (العامّة)[٢٩]، فهو أسلوب مضاد للسلوك المدني غير مبال (بالدولة الكائن المجرَّد الذي لا يستوي مع الاجتماعي).

وتتمظهرُ حركة العامّة بحركة الهجرة السريّة، وهي مشكلة وجودية وإنسانية؛ لأنها ناتجة عن الظلم السلطاني والاتباعات الظلمية بسبب التهميش والإقصاء والبطالة والتحقير والفقر والخصاصة، حيث يفقد قيمة الانتماء للأرض فيغدو مغتربا داخل وطنه، وهذا ما رأيناه في أوروبا، ممّا كان يأتي على لسان المهاجر السري (المهاجر القسري) من موسيقى ومقامات وإيقاعات من مثل (الراب، والراي).

مآلات المشاهدة الحقلية (الخاتمة):

انطلاقاً من سيرورة المشاهدة الحقلية، نزعم الآتي:

- ندرة القراءات التي تناولت الرعية بمفهومها الحداثي (الحراك)، من وجهة نظر الوسم، إذ الدراسات الفقهية مشغولة ببعدها المدرسي أو الأكاديمي، ممّا كرَّس حالة (الذريّة) (Atomissime).
- قامت المحاولة على توسيع دلالة النص في فقه الحسبة ووظيفه في الاجتماع السياسي، تجلّى ذلك من (حفرٍ) في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية؛ لتتجلى ظاهرة (الفقيه التدخُّلي) أو (الفقيه المحايث) حيال الدولة المجرَّد الكائن حيث الماهية هو، وإنزال الفعل السياسي إلى حالةٍ من (التدبير) (Jestion) المتعالي يساوق المحايث.
- كثافة الإنتاج الفلسفي لدراسة الظاهرة يقابلها شحٌّ وعِوَز في موضعة الفكر الإسلامي تجاه هذا الشغور، حيث لم تستبطن الدراسات الفقهية أرض الحراك وهموم العامّة، أو العامَّانية.
- التغاضي للمنسي والهامشي في دراسة الفقهاء.
- رغم طوباوية الفقيه، إلا أنه كان أكثر واقعية من الأديب السلطاني، حيث وقع تحقير للعامة والرعية ودونيتهم "ومثال السلطان القاهر لرعيته ورعيته بلا سلطان مثال بيت فيه سراج منير وحوله مقام من الخلق يعالجون صنعته، بينما هم كذلك طفئ السراج فقبضوا أيديهم وتعطل جميع ما كانوا فيه، فتحرك الحيوان الشرير، وخشخش الهوام الخسيس، فدبّت العقرب من مكمنها، وفسقت الفأرة من جحرها وخرجت الحيّة من معدنها وجاء اللص بحيلته و هاج البرغوت مع حقارته، فتعطّلت المنافع واستطارت

المنصار، كذلك السلطان، إذا كان قاهراً لرعيته كانت المنفعة به عامة وكانت الدماء في أهبها معقونة... (سراج الملوك).

- التفاتة الورقة لفقه الحسبة المتأخر بعد سقوط الأندلس من أن تكون مراقبة على السوق وغشوشه وآفاته إلى أن تكون وثيقة في التاريخ الاجتماعي والسياسي، حيث كانت مهمتها الاحتساب على الاجتماع وفساد مقوماته من حيث مسألة اليهود، وتدهور النقل وزوال قاعدته من الذهب، إذ أخلت محلها القشور الفلسية. وما نضوب الجغرافية العربية، وانحسار مساحة القمح، لدليلٌ على فوات خطاب الجغرافية، الأمر الذي حرّك العامّة أو الرعية أو الحراك أو النايضة للوقوف بوجه فوات الاستواء السياسي مع الاجتماعي، و(المواطنة) (La citoyenneta) بدلاً من (الإرعاء) (La sujetion).

Abstract

Arabic Spring (*Úmrani event*) In view of political Islamic thought

By Basam Abd El-Kreem

This study attempts to treat the deficiency in the contemporary literature toward a recent Arabic event (Arabic Spring), which outburst because of severe deficiency in human rights. The deficiency in the role of justice state toward Islamic Arabic society (*Úmran*) is discussed through:

1. Fiqh (ALḤISBAH)
2. Fiqh of Royal rules

الهوامش:

[1] ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م، ص٣٨-٤٠.

[2] المرجع السابق، ص٤٠.

[3] سلسلة حوارات المستقبل العربي (١)، الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي (... وضّاح شرارة، ص١١٤).

[4] المرجع السابق، ص١١٤.

[5] عز الدين العلام، ملاحظات حول الرعية في الأدب السياسي السلطاني، مجلة الاجتهاد، العدد ٢٢، السنة السادسة، ١٩٩٤م، ص١٩-٢١.

يلاحظ محمد أركون بهذا الصدد: "إن الدراسة السوسيولوجية للمجتمعات الإسلامية تبدو شبه مستحيلة أو بعيدة المنال. والسبب هو أن كل المصادر التي وصلتنا عن تلك الفترة وأحداثها تحتقر ما يدعى بالعامة أو الدهماء، أو الغوغاء أو الأوباش أو الرعاع أو قطّاع الطرق أو الفسّاق أو الزعار (الزعران) أو المفسدين. وكل هؤلاء يشكلون قطاعات واسعة مما ندعوه اليوم بالجماهير الشعبية أو بالشعب!". "الإسلام: الأخلاق والسياسة"، ترجمة هاشم صالح، ص١١٦. مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠م. وبالنسبة لحالة المغرب، نشير إلى الدعوات المتكررة لبعض المؤرخين (عبدالله العروي، محمد ذنيبر...) للاهتمام بالتاريخ الاجتماعي، وإلى عقد بعض الندوات في الموضوع مثل ندوة مكناس (١٩٩١م) حول "جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط"، ما انكبَّ بعض الباحثين على دراسة هذا الموضوع وطرح بعض مسائله مثل دراسة الأستاذ عبد الأحد البستي حول "التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج"، ودراسة محمد مزين "حول استغلال النوازل الفقهية في كتابة التاريخ" المنشورتان ضمن أعمال ندوة "البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم" (الرباط، ١٩٨٩م)، ودراسة أحمد الطاهري لموضوع "طبقة العامة في المجتمع الإسلامي الوسيط" (ندوة مكناس، منشورات كلية الآداب،

١٩٨٩م)، ودراسة الأستاذ إبراهيم القادري بوتشيش بعنوان "لماذا غيّبت الفئات الشعبية من تاريخ المغرب الشرقي الوسيط" المنشورة ضمن أعمال ندوة "المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر". منشورات كلية الآداب، وجدة، ١٩٨٨م.

[٦] ويقصد بالعامانية حسب مصطلحهم الفلسفي هو تعبيرٌ عن الزمن الثقافي الذي يُحيل إلى الفضاء العمومي مضافٌ إليه الزمن الثقافي إنه مفهومٌ مكاني زماني.
إذن "العامانية" هي تخلص من "الزمن الثقافي التشميلي"، بما هو زمن القصور الذي يبقى عموم الكائنات البشرية في دائرة الرعايا، وولوج إلى الزمن الثقافي الحر، الذي يصير فيه كل كائن بشري مو اطنا يسهم في الفضاء الحر للمدينة التي غدت بفعل تجربة الحرية، منتمية بدورها إلى الفضاء الحر للإنسانية.
"العامانية" هي اللحظة الثالثة التي تعقب الثورات المدنية، أو ثورات الإرادة اليقظة، كما تعقب الحراك الاجتماعي الهادئ الذي يؤسس لتحولات في بنية السلطات الاستبدادية، من شأنها تأسيس المجتمع المدني كقاعدة للدولة. انظر: عبد العزيز بومسهولي، الفلسفة والحراك العربي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٥م، ص١٢٥-١٢٧.

[٧] عبد الصمد الكبَّاص، الجسد والكونية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٣م، ص١٤، ٥٤، ٥٧، ٥٨، ٦٣.

[٨] المرجع السابق، ص٣٣.

[٩] مهدي عامل، في عالمية الفكر الخلدوني، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٦م، ص٥٩، ٦١، ٦٥،٦٧.

[١٠] التحيين سؤالٌ تثيره إشكالية الكائن قيد التكوين، أو ما يمنحه الوجود كمضمون للتجربة فيحوِّله من وجود عَفْل إلى وجودٍ (على نحو خاص)، أو العملية التي يؤخذ فيها الوجود معنى الحاضر. انظر: عبد الصمد الكبَّاس، مرجع سابق، ص٥.

[١١] مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص٣٥-٣٨، ٤٠-٤١.

[١٢] المرجع السابق، ص٤٠-٤١.

[١٣] عبد العزيز بومسهولي، الفلسفة والحراك العربي، مرجع سابق. انظر:

- حوار مع فتحي المسكيني (فيلسوف تونسي).
- حوار مع عبد الصمد الكباص وحسن أوزال (مغاربيان).
- حوار مع أحمد عبد الحليم عطية (فيلسوف مصري).
- حوار مع مصطفى النشار (فيلسوف مصري).
- حوار مع محمد صقّار (فيلسوف مصري).
- حوار مع إدريس كثير (فيلسوف مغربي).
- حوار مع عبد العزيز بومسهولي (فيلسوف مغربي).
- حوار مع عبد السلام بنعبد العالي (فيلسوف مغربي).
- حوار مع هاشم صالح (فيلسوف مغربي).
- حوار مع حسن حنفي (فيلسوف مصري).
- حوار مع كمال عبد اللطيف (فيلسوف مغربي).

[١٤] عز الدين العلام، مجلة الاجتهاد، مرجع سابق، ص٢١-٣٨.

[١٥] يؤكد عابد الجابري، في معرض مقارنته بين الفكرين الشرقي القديم واليوناني، هذا التصور ويقول: "... إن ما يجمعه الراعي الشرقي هم الأفراد والمتناثرون الذين يلبون نداءه إذا دعاهم للاجتماع بصوته و "صفيره". ولكن ما إن يختفي الراعي حتى يتشتت شمل القطيع (الرعية). وبعارة أخرى إن وجود (القطيع) كمجموعة واحدة مرهون بالحضور المباشر للراعي وبعمله المباشر كذلك..... ويشير في خاتمة مقارنته إلى "... إننا ننسى، بسبب كثرة الاستعمال، "إن الرعية" تعني في اللغة العربية نفسها: الماشية،

القطيع من الأكباش والنعاج". انظر: محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م، ص٣٩؛ وانظر: عز الدين العلام، مجلة الاجتهاد، مرجع سابق، ص٢٥.

[١٦] الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٤م (سلسلة حوارات المستقبل العربي)، مرجع سابق، رضوان السيد، ص٢٩-٥١؛ وانظر: عز الدين العلام، الآداب السلطانية، عالم المعرفة، المطابع الدولية، الكويت، ٢٠٠٦م، ص٧-٣٩، ٥١-٦٣.

[١٧] أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك، الأبواب، ص٦، ٩، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٣.

[١٨] الماوردي، (ت٤٥٠ه). تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تحقيق محي هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية، بيروت، ص٢١٤.

[١٩] سراج الملوك، (الباب التاسع)، مرجع سابق.

[٢٠] "الشهب اللامعة في السياسة النافعة". (الباب الثامن عشر). "مقامة السياسة"، ص١٢٣، تحقيق ودراسة محمد كمال بشانة، الرباط، (بدون تاريخ).

[٢١] ابن طباطبا، (الفخري في الآداب السلطانية)، بيروت، ١٩٨٠م، ص٤١.
أبو حمو الزياتي، (واسعة السلوك..."، مخطوط، و/ظ ٣٤.
وحول مثل هذه التشبيهات، انظر: فصل "في سائر الأمثال والتشبيهات الملوكية والسلطانية من كتاب آداب الملوك" للثعالبي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م، ص٥٤.

[٢٢] سراج الملوك، مرجع سابق، ص١٥٦.

[٢٣] أبو القاسم الحسين بن علي، السياسة، ص٥٤. (ضمن مجموعة في السياسة: تحقيق ودراسة فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

[٢٤] الآداب السلطانية، عالم المعرفة، مرجع سابق، ص١٨١-١٨٣.

[٢٥] يحيى بن عمر (ت٢٨٩هـ). أحكام السوق. دراسة وتحقيق: د.إسماعيل خالدي، منشورات مركز البحوث الإسلامية بإستانبول(isam)، ومركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء بالرباط، طبع وتوزيع دار ابن حزم للطباعة والنشر- بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ/٢٠١١م. تضمَّنت صفحاته مجموعة من الفتاوى المالكية فيما حدث للسوق من غشوش وآفات.

[٢٦] موريس لومبار. الأسس النقدية للسياسة الاقتصادية، نشرها وترجمها توفيق إسكندر تحت عنوان "بحوث في التاريخ الاقتصادي"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٦١م، ص٥١-٧٨؛ وانظر: موريس لومبار. الإسلام في مجده الأول، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، المؤسسة العربية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م، ص٩.

[٢٧] عبدالعزيز بومسهولي، الفلسفة والحراك العربي، مرجع سابق، ص١٥٤.

[٢٨] المرجع السابق، ص١٥٥.

[٢٩] المرجع السابق، ص١٥٨، ١٦٠، ١٦٣.